رواية
عائلة ريفية
للكاتبة
فاطمة قاسم

المقدمة

في زاوية من زوايا هذا العالم، حيث تختلط الأحلام بالواقعِ، وتتداخل القلوب كما تتداخل الخيوط في ثوبٍ مُطرّز بالحنين، وُلدت هذه الحكاية.

ليست قصة حبّ مثالية، ولا رواية رومانسية تقليدية، بل هي مرآة لقلوبنا حين تحب، تخذل، تُخذل، ثم تقف من جديد. هي حكاية ترف، الفتاة التي أحبّت

بصدق، فدفعت ثمن إخلاصها وجعًا. وهي أيضًا حكاية زهراء، التي لم تختر مصيرها، لكنها صبرت حتى خُلق من صبرها معنى جديد للحب.

وفي القلب... يقف محسن، رجلٌ تشظّت روحه بين ماضٍ لم يُغفر، وحاضرٍ لم يُفهم.

هذه الرواية ليست فقط عن الخيانة والوفاء، بل عن الخيارات، عن العائلة، عن التقاليد التي تجرح، والأقدار التي تُصلح، وعن الحبّ حين يُولد من جديد بعد أن حسبناه مات.

في بقعة نائية من الريف، حيث لا يُسمع غير صوت الريح والمحراث، كانت

زهراء ابنة الخامسة عشرة تمضي يومها بين حراثة الأرض، و ورعاية الحيوانات، وتنظيف المنزل، والطبخ. فتاة نحيلة، لكنها صلبة كجذوع النخل، تتحمّل ما لا يطيقه الكبار، وتنهض كل صباح قبل أن يصحو الديك، لتلبي نداء الحياة القاسية، دون شكوى ولا امتعاض.

لم تكن زهراء تنعم بدلال البنات، فهي لا أخوات لها يشاركنها أعباء البيت، ولا أم ترأف بها، ولا أب يقدّر سعيها.

أمّها وأبوها لا يريان فيها إلا يدًا عاملة تلبي الأوامر، فلا كلمة شكر، ولا لمحة فخر، بل مجرد نظرات جافة وأوامر لا تنتهي.

أما أخوها الوحيد، فكان الذكر المدلّل، والكبير الذي لا يُسأل عمّا يفعل.

مشاغبٌ بطبعه، كثير الغياب عن البيت، لا يعاونهم كثيرًا، ومع ذلك ظلّ في عيونهم الأفضل، يكفي أنه ذكر، ويكفيهم بذلك أنه "رجل" بحسب نظرهم.

أما زهراء، فكانت قد أكملت المرحلة الابتدائية بتفوق، وكانت الأولى في

صفها، حافظة للقصائد، محبة للقراءة والكتابة.

لكنّ ذلك لم يكن شفيعًا لها، بل كان سببًا في قمعها.

قالوا لها: "تعلمتِ القراءة والكتابة، وهذا يكفي، ما فائدة الدراسة بعد؟ أتراكِ ستغدين عالِمة؟"

فأُخرجت من المدرسة، وكأنها ارتكبت جرمًا، وكأن العلم لعنة تحلّ على بنات القرى، وكأن الطموح حرامٌ على الأنثى.

هكذا وئِد الحلم في مهده، وبقي قلب زهراء ينبض بأمنيات لم يُكتب لها أن تولد.

أما أخوها، فقد أُعطوا له الخيار بكل بساطة: "إن شئتَ أكملت دراستك، وإن شئتَ تركتها، فأنت رجل، والقرار قرارك."

لم يُسأل عن تفوقه، ولم يُحاسب على تقصيره، فهو في عيونهم يملك ما يكفي من القيمة لمجرد كونه ذكرًا.

فكر قليلًا، ثم قال: "لن أكمل، ما حاجتي للدراسة؟ الرجل لا يحتاج شهادة، يكفيه أنه رجل."

وهكذا ترك المدرسة، دون لوم ولا عتاب، بل تلقت عائلته قراره بالرضا والقبول، وكأن الذكورة وحدها تُغني عن كل علم وفهم.

كان الفارق بينهما كالفارق بين السماء والأرض، لا لشيءٍ سوى أن القدر شاء أن تولد هي أنثى، ويولد هو ذكرًا.

في كل صباح كانت زهراء تنهض باكرًا، تهيئ الفطور للجميع، وتغسل الأواني، ثم تخرج إلى الحقل تحمل فأسها، بينما هو ينام حتى منتصف النهار، ثم يخرج ليتسكع مع أصدقائه، ويعود ليجد الطعام جاهزًا، والماء باردًا، والثناء في انتظاره.

ولم يكن ذلك يوجع قلب زهراء فحسب، بل كانت تتعلم بصمتٍ أن الأنثى في قريتها لا تُرى إلا خادمة، وإن طال طموحها، فحدّه قدر الزواج لا أكثر.

كان محسن، ابن عمها، فلاحًا شابًا، وسيم الملامح، جامح الروح، يشتهر في القرية بقوته وسرعة بديهته، كان مختلف عن أهل القرية تماما لكنه كان يخفي في قلبه قصة حب لا يعلم بها إلا

المقربون. فقد أحب فتاةً من قريةٍ مجاورة، تعلق بها كما يتعلق الندى بورق الزهر، أحبها بصدقٍ نادرٍ في بيئة لا تعترف إلا بالعادة والتقليد.

كانت تلك الفتاة كل حلمه، كل رجائه من الحياة، لا يرى بعدها امرأة تحلو له، ولا يسمع اسمها إلا وارتجف قلبه فرحًا وخوفًا.

ولكن أهله لم يروا الأمور بعين القلب، بل بعين العرف والنسب.

قالوا له: "هي غريبة عنا، لا نعرف أصلها ولا فصلها، والزواج سترٌ للبنت، وزهراء بنت عمك أولى بك من غريبة لا نعلم أين تربت ولا من رباها."

اعترض، توسّل، ذكّرهم بصدق مشاعره، لكن الرد كان حاسمًا، لا جدال فيه. "نحن

لا نأخذ إلا منّا وفينا، وزهراء تنتظر من يسترها، وأنت أولى بها."

طأطأ رأسه، وأخفى وجعه، لكنه لم ينسَ... ولم يغفر.

وصل الحديث إلى زهراء كما تصل الريح الباردة في ليالي الشتاء، تسللت الكلمات إلى أذنها ببطء، لكنها اخترقت أعماقها كالسهم.

"ابن عمك محسن... خطيبك القادم." لم تكن زهراء تجهل ما يعنيه هذا الإعلان، ففي قريتهم، لا مكان لرأي البنت، ولا يُستشار القلب حين يتكلم الأهل.

لكن ما أثقل الخبر على قلبها، ليس الزواج ذاته، بل الرجل الذي اختير لها... محسن، ابن عمها، الذي لم يبادلها يومًا كلمةً طيبة، ولا نظرةً دافئة، بل كان

حضوره أمامها شبحًا جامدًا، لا يثير إلا الريبة والخوف.

كانت تعلم بحبه لفتاةٍ من قرية أخرى، فقد تناقل أهل الريف الحكاية كما يتناقلون قصص المطر، وكان حبه معروفًا، ورفضه أشد وضوحًا.

فكيف يُجبر اليوم على الزواج منها؟ وكيف ستكون له زوجةً وهو لم يخترها؟ وهو يرى فيها عنوان حرمانه؟

سكنت زهراء إلى ركنها في البيت، وعيونها تبحث عن مفر لا وجود له، وداخلها يتهشم بصمت.

لم تعترض، فهي ابنة الريف، تعلّمت كيف تخبئ الألم، وتضع الصبر وشاحًا فوق وجعها.

لكنها في تلك الليلة، كتبت في دفترها القديم:

"قالوا إن الزواج ستر، ولم يسألوني: ممّ أخاف، وعلى أي جرح أضع هذا الستار؟"

جاء يوم الخطبة كما يُؤتى بالأيام الثقيلة، لا يحمل فرحًا ولا بشائر، بل خُطى تُجرّ على أرضٍ متشققة من الغضب.

اجتمع الأهل في ساحة البيت الطيني، وضُرِبت الخيمة، واصطفّت الأطباق،

وارتفعت الأصوات بالزغاريد، لكن زهراء لم تسمع منها شيئًا.

كانت جالسة إلى جوار أمها، بثوبٍ بسيط، قد خاطته بيديها، ووجهٍ مطرقٍ إلى الأرض لا يعرف ما يُقال عنه "عروس".

محسن دخل الساحة دون ابتسامة، صافح الحاضرين، ثم جلس كأن جسده بينهم وقلبه في مكانٍ آخر.

كان جامد النظرات، لا يرى في عروسه سوى ظلّ لشيء لم يُرِده، صامتًا كأن في فمه حجرًا، ووجهه لا يحمل سوى الأسى.

وحدها زهراء كانت تقرأ ذلك الحزن... لا، ذلك الغضب الذي يغلي تحت جلده،

والغصة التي تتكور في عينيه. كانت تعلم أنه يراها امتدادًا لخيبته، وأنها ستكون في حياته عقوبةً لا خيارًا.

"مبروك"، قالها أحدهم.

ردّ محسن بهزّة رأس، بينما زهراء ابتلعت دمعها دون أن تراه يبرق في عينيها. وفي تلك الليلة، كتبت في دفترها:

"إنه خطيبي، لكنه ليس اختياري... وأنا عروسه، ولست حلمه."

كانت زهراء تنحني على الأرض، تجرّ محراثها الخشبي، وقد تسلخت يداها من تعب الأيام وتيبّست من صقيع الشقاء.

الريح تعبث بشعرها الأشقر، والغبار يملأ عينيها، ومع ذلك كانت تعمل بصمت يشبه الصلاة.

وفيما كانت تمرّ قرب سور طيني مهدم، سمعت صوت امرأةٍ تخاطب ابنتها الصغيرة :

"تزوجي، زهراء ليست أفضل منك؟ لكي تتزوج قبلك!"

توقفت زهراء للحظة، لم تلتفت، ولم تظهر على وجهها دهشة.

لكن الكلمات كانت كالسهم المسموم، لا يُحدث صوتًا عند دخوله، لكنه يمزّق الداخل بلا رحمة.

منذ متى أصبح الزواج المبكر مفخرة؟

ومنذ متى صار الصمت عن القهر بطولة؟ ومنذ متى غابت أحلام البنات ليُستبدلن بمصير لا يحمل إلا الطاعة؟

ابتلعت زهراء الغصة، وعادت لتحرث، كأنها تحرث نصيبها من القسوة.

وفي الليل كتبت في دفترها:

"قالوا تزوجتِ قبل غيركِ... ولم يعلموا أنني خُلعتُ من ذاتي قبل أن أدخل بيت الزوج حتى."

بينما كانت زهراء تعدّ طعام العشاء لأهلها، انبعث من المطبخِ دفء الموقد وروائح البهارات التي علِقت في أطراف ثوبها الأحمر. كانت تتحرك بخفة بين الأواني، وشعرها الأصفر الملتفّ إلى أعلى رأسها مربوط بقطعة قماش بسيطة، لكنه بدا كالتاج فوق رأسها.

فجأة، دخلت عائلة محسن إلى الدار. لم تتوقف زهراء عن العمل، لكن عينيها التفتت للحظة سريعة، ثم عادت تنظر إلى النار.

لم يكفّ أخو محسن عن النظر إليها، يطيل التحديق ويبتسم بارتياح، كأن شيئًا فيها استوقفه، أو كأنها صورة من حلم قديم.

أما محسن، فكانت نظراته كالسهم، حادة، حزينة، مملوءة بالغيظ الصامت. نظر إليها وكأنها عدوته، وكأنها سرقت من بين يديه حب حياته، رغم أنها لم تكن السبب، بل كانت ضحية مثله تمامًا. دهشت عائلة محسن من لذة طهي زهراء ومهارتها التي بدت واضحة في كل طبق تقدم به. كانوا يمدحون طعامها بإعجاب وتقدير، يتبادلون الحديث عن نكهة الأطعمة التي كانت تفوق توقعاتهم.

لكن، على عكسهم، لم تكن عائلة زهراء تشاركهم هذا الشعور، فقد ظلوا يتعاملون معِ الأمر ببرود، وكأنهم يرون في الطهي مجرد واجب رتيب لا يستحق الثناء.

أما محسن، فظلّ ينظر إليها بنظرة مختلفة؛ نظرة لا تعترف

بجمال طهيها ولا بإتقانها، بل كانت محمّلة بحقدٍ دفين، وكأنه يرفض كل ما

يتعلق بها، وكأنها عادية جدًا لا تستحق شيئًا من تقديره أو إعجابه.

حين بدأت زهراء بسكب الشاي للضيوف، تقدّم محسن بخطوات ثقيلة وقال بنبرة قاطعة:

"أنا أَسكب لنفسي، لا حاجة بأن تسكب لي."

لم تكن كلماته موجهة لها وحدها، بل كأنها طُعنة صغيرة أراد بها أن يثبت شيئًا لا يُقال.

تدخلت والدتها على الفور، وقالت بصرامة تقطع الطريق أمام أي تهاون:"هذا واجبها، لا تدللها."

فصمت محسن ورجع إلى مكانه دون رد، بينما ارتسمت على وجه والدته

ابتسامة ماكرة، وقالت وهي تضحك: "آه، كم يخاف على زوجته المستقبلية!"

سرت ضحكة خفيفة بين الحاضرين، أما زهراء فظلت صامتة، تمسك إبريق الشاي بيد ثابتة وقلبٍ يتقلّب بين الأسى والاستسلام.

بينما كانوا يتناولون الطعام في هدوءٍ يقطعه صدى الملاعق، تتحنح أحد الآباء وقال بنبرة ظاهرها المزاح وباطنها القرار:

"لا حاجة بنا للإطالة... الأعمار تمضي، ونحن لم نرَ بعد الأحفاد."

أومأ الآخرون برؤوسهم، وكأنهم كانوا ينتظرون تلك الجملة لتُقال، ليُطلق بعدها

القرار وكأنه قدر لا مردّ له."ليكن العرس الأسبوع القادم."

قالها والد محسن بثبات، فأصبحت الكلمات حُكمًا لا رجعة فيه. في تلك اللحظة، شعرت زهراء بأن شيئًا ثقيلاً سقط في صدرها، كأن الزمن قرر أن يركض، لا ليمضي بها إلى حلم، بل ليغلق خلفها أبواب الطريق.

انسحب الحديث من حولهم شيئًا فشيئًا، وغاص كلٌّ منهما في عالمه الداخلي، يتلقى الصدمة على طريقته. محسن كان يحدّق في طبق طعامه، دون أن يراه. قلبه لم يكن هنا، بل في القرية المجاورة، عند تلك العينين اللتين أحبّ، والضحكة التي ما زالت تسكن ذاكرته. شعر بأنهم انتزعوا منه حبّه عنوة، وزجّوا به في حياة لم يخترها.

تملّكته غصّة، ليس لزهراء ذنب فيها،

بل لأنها فقط "كانت الأقرب"، الأقرب دمًا، لكنها الأبعد روحًا.

أما زهراء، فكانت تجلس كصخرة لا تتحرك، لكنها من الداخل تتشقق. عيناها زائغتان، تحدقان في نقطةٍ بعيدة على الجدار، كأنها تبحث عن نافذة تهرب بها من المصير المرسوم.

لم تكن تحب محسنًا، ولم تكن تبغضه، لكنها كانت تحب المدرسة... تحب الورق

والقلم، تحب حلمها بأن تكون شيئًا آخر غير ما يُراد لها.

في تلك اللحظة، اجتمع في المائدة جسدان... وغاب قلبان.

وبينما كان الصمت يلف المكان، قال محسن بصوته الهادئ الذي أخفى خلفه عاصفة مشاعر:

"هل للعَجَلة داعٍ؟"

ساد الصمت للحظة، كأنّ الأرض نفسها توقفت لتُصغي.

رمقه والده بنظرةٍ حاسمة، وقال بنبرة لا تقبل جدلًا:

"العُمر لا ينتظر، والزواج ستر، وما دام كل شيء قد رُتّب، فلا حاجة للتأخير."

همّ بأن يرد، لكنّه ابتلع كلماته، فهو يعلم أنّ الرجوع عن الكلمة في عُرفهم هزيمة، وأن التراجع عن الزواج بعد أن فُرض، ليس شجاعة بل "عيب".

نظرت إليه زهراء من طرف عينها، دهشة تعتريها...

هل كان يحاول تأخير هذا القدر؟ أم أنه فقط يحاول أن يُنقذ قلبه من قبرٍ سيوارى فيه حيًا؟

لكن لا أحد أجابه...

فالقرارات في الريف لا تناقَش، بل تُنفّذ.

أما زهراء، وقد ارتجف قلبها من قرارٍ لم تكن شريكة فيه، فقالت بنبرةٍ خافتةٍ تكاد لا تُسمع:

"حياتُنا كلُّها عَجَلة... عن أيِّ عَجَلةٍ تتحدّث؟"

لكن صوتها ما لبث أن انكسر في زوايا الغرفة، حين قاطعتها أمها دون أن ترفع عينيها عنها، وقالت ببرودٍ اعتادت عليه:

"اسكبي لي شايًا آخر."

صمتت زهراء، وكأن الكلمات التي خرجت منها لم تكن إلا تمردًا صغيرًا لا يُسمح له أن يكتمل.

أمسكت إبريق الشاي وبدأت تسكب، فيما نظراتها تتبع البخار المتصاعد، كأنها تبحث فيه عن طريق للهروب، أو نافذة تفتح على حياةٍ لم تُمنَح لها.

كان الجميع يأكل ويتحدّث، أما قلبها، فكان في مكان آخر... في عالمٍ كان من المفترض أن يكون لها وحدها.

قالت أم محسن وهي تمسح يديها بطرف المنديل، بعد أن وضعت لقمتها الأخيرة:

"في كل شيء لا يوجد داعٍ للعجلة... إلا لزواجك يا بني، فأنا أنتظره منذ سنوات."

ثم رمقته بنظرة تحمل مزيجًا من الحنان واللوم، كأنها تُذكّره بوعدٍ لم يُوفَ، أو أمنية طال انتظارها.

محسن التفت نحوها ببطء، ثم أعاد نظره إلى صحنه دون تعليق.

أما زهراء، فظلت تنظر إلى الشاي الذي

بين يديها، كأنها تبحث في حرارته عن إجابة لمستقبلٍ لم تختره.

قالت أم زهراء بنبرة تحمل بين طياتها ذكريات مريرة وحكمة ناضجة:

«هنيئا لكم، ففي زماني لم أرَ زوجي إلا في يوم زفافي فقط، فكانت الحياة آنذاك قاسية، والحياة الزوجية تبدأ بلا فرصة للقاء أو تواصل سابق. أما أنتم فقد نلتم

من الحرية والفتوحات ما لم نكن نحلم به. لطالما تمنيتُ أن ألتقي بزوجي في خلوة أثناء خطوبتنا، ولو لمرة واحدة، لكنّ الظروف لم تسمح لنا ذلك.

واليوم، أدعو الجميع أن يتركوا محسن وزهراء وحدهما، ولو لنصف ساعة، فبلا شك بينهما حوارات وشؤون لا بد أن تُناقش على انفراد.

وهكذا، اصطفت نظرات زهراء متعبة بين الألم والرهبة نحو محسن، تعكس في صمتها كل الأسئلة والشكوك التي تخالج قلبها، فيما وقف محسن منفرج الوجه، يكتم ما يدور بداخله من مشاعر معقدة، كأن هذه اللحظة كانت مفصلية في حياتهما، لا يعرف كيف تُحكى أو تُفهم إلا بصمت يملأ الجو.

فما إن نهض الحضور امتثالًا لدعوة والدتها، حتى خفَت صوت المكان، وسكنت الأحاديث، وخيم صمت ثقيل لا يشبه إلا صمت الغروب في القرى. بقي محسن واقفًا مكانه، يحدّق في زهراء وكأنّه يراها لأول مرة، لم تكن ترتدي شيئًا فخمًا، ولا تتصنّع حضورًا، لكنها في تلك اللحظة تحديدًا بدت له كأنّها خرجت لتوّها من صفحة خرافية. أما زهراء، فقد جلست بجِدّة متوترة، كمن لا يعرف هل

يبادر بالحديث أم ينتظر نطق الجدار المقابل، كانت نظراتها إليه خجولة، لكنها غير عمياء، تدرك ما بينهما من

فراغ عمر لم يُروَ بعد، وما بينهما من مسافة قلب لا يعترف إلا بالصدق.

طال الصمت بينهما، حتى قال محسن، وعيناه لا تزيغان عن عينيها: – "زهراء... إني لا أحب فتاةً فحسب، بل أعشقها... أعشقها بكل ما فيّ من قدرة على العشق، أعشقها حدّ الوجع."

قالت بصوت هادئ يشبه نسيم المساء:

– "لكلٍّ منّا حلم... أنا حلمي أن أكمل دراستي، وأن أكون شيئًا في هذا العالم لا

يُختزل في لقب زوجة فقط، وأنت... حلمك أن تتزوّج تلك الفتاة التي عشقتها بصدق. غير أننا، يا محسن، لم نختر طريقنا... بل سِرنا فيه كما كُتب لنا، كأننا سطور في كتاب لم نكتبه بأيدينا."

ثم أطرقت رأسها قليلًا، وقالت:

– "نحن لا نعيش فقط ما نحب، بل كثيرًا ما نعيش ما فُرض علينا، وما سُمّي قدَرًا."ارتبك محسن، شعر أن كل ما أراد

قوله تبعثر أمام ثقل كلماتها، وأن الحبّ وحده لا يكفي حين لا يُصغي القدر.

أخذت زهراء نفسًا عميقًا، كأنها تنفض عن صدرها غبار سنوات طويلة لم تجد لها صوتًا.

قالت وهي تحدّق في فنجان الشاي الذي برد منذ دقائق:- "لطالما كنتُ الخادمة في هذا البيت... أطبخ، أنظّف، أرتّب،

أبتسم... دون أن أتلقّى امتنانًا، أو شكرًا، أو حتى لمسة من حنان."

رفعت عينيها إليه، لا شفقة فيها ولا دمعة، بل وقار امرأة نضجت قبل أوانها:

– "ولا تخف، فأنا لن أطلب منك حبًّا، ولا اهتمامًا، ولا أن تمثّل دور العاشق لأجلي. لقد اعتدتُ حياةً لا ينتظر فيها المرء

شيئًا، بل يعيشها كما لو أنّه يعاني موتًا بطيئًا.

سكن محسن، كأن الكلمات خنقته. لم يعرف أكانت تُعاتبه، أم تُحرّره. لكنه أدرك أن هذه الفتاة ليست ضعيفة كما خُيّل له... بل قوية بما يكفي لتتحمّل

الحياة وحدها، إن اختار هو ألا يكون فيها.

نظر محسن إلى زهراء بنظرة امتزج فيها الحرج بالصلابة، ثم تنفّس ببطء وكأنّه يتهيأ لقولٍ طال احتباسه في صدره:- "زهراء... أنا لا أؤمن كثيرًا بالتقاليد، ولا بقيود العادات، وتفكيري لا يماثل أهل

الريف الذين يقدّسون كل ما توارثوه دون سؤال. صدقًا، أنا أعيش بعقل يسبق مجتمعي بخطوات."

ساد الصمت لحظة، ثم تابع بصوت خافت لكنه واضح، حادّ كالسيف:

– "لكنني، رغم كل ذلك، لا أراكِ زوجة لي... بل امرأة جُبرتُ على الارتباط بها، دون رغبة حقيقية أو مشاعر دفعتني لهذا القرار."

رمقها بنظرة مباشرة، بلا مواربة ولا تزييف وقال:

– "فلا تنتظري مني الكثير، لا حبًّا ولا حنانًا. عيني لا ترى سواها... عشيقتي، من سكنت قلبي قبل أن يُفرض عليّ قلب آخر."

تجمدت زهراء في مكانها، تتلقّى كلماته كمن يتلقّى حكمًا قاسيًا لكنه توقّعه من زمن، ولم يعد فيه متسع للدهشة.

ثم قالت زهراء بنبرة ملؤها الهدوء والإصرار: "أنا أعلم أن الحياة قد فرضت علينا أدوارًا لا نختارها، وأن القدر كتب لنا مسارات لا نميل إليها، لكني أؤمن أن القوة تكمن في أن نحيا رغم هذه القيود، وأن نجد في أعماقنا بصيص أمل لا يخبو. قد لا أكون الزوجة التي تتمناها، وقد لا أكون حبًا يسكن قلبك، ولكنني سأكون امرأة صادقة مع ذاتها، تحاول أن تبني من بين رماد الفراق جسورًا من

الاحترام والتفاهم، حتى وإن كانت الحياة قد قررت لنا طرقًا مختلفة."

ثم انقطع حديثها فجأة، حين ارتفع صوت أحد الحاضرين داعيًا الجميع إلى الحضور، فخيم الصمت على المكان، وتبدد التوتر الذي انتشر بين القلوب، وأعادت الأمور إلى مجراها المعتاد. ومع ذلك، بقيت كلمات زهراء معلقة في أرجاء الغرفة، كوشمٍ لا يُمحى من ذاكرة

الحاضرين، تذكرهم بمرارة الواقع وجمال الصمود في وجه القدر.

كان محسن يحدق بزهراء بنظرة لا تحمل في طياتها سوى العداء، لا تلك النظرة التي تُهدى للخطيبة المرتقبة، بل نظرة خصم يترقب فرصة للانقضاض، كأن بينهما معركة خفية تدور رحاها في صمت الكلمات ومبطّن الأعين. أما زهراء، فكانت تراه مجرد فلاح شاب

وسيم، يختلف تفكيرها عن تفكير أهل القرية وضيق أفقهم، لكنها لم تغفل حقيقة أنه يحمل في قلبه حبًا فاق حدود المحبة العادية، بل هو عاشق بكل ما تحمل الكلمة من عمق وجدانية، عاشق لتلك الفتاة التي لم تكن سوى حلمه الذي لم يغب عنه يومًا. وكانت زهراء تدرك أن المسافة بينهما ليست مسافة جسم، بل مسافة أفكار واعتقادات، وأن هذا الحب الذي يعتري محسن ربما لم يُكتب له أن

يُثمر، لكن في قلبها أضاءت شعلة من الحذر والحذر وحده، فلا هي مستعدة لأن تنسلخ عن ذاتها، ولا هو مستعد لأن يتنازل عن شغفه، فصار اللقاء بينهما تلاقي قلوب متباعدة، تحمل كل واحدة منهما على كتفيها ثقل حياة مختلفة، وحكاية لم تكتمل صفحاتها بعد.

قالت أم محسن محذرةً ومتفهِّمة في آنٍ واحد: «يا محسن، لا تذهب إلى عملك غدًا. لنذهب جميعًا نحن العائلتين إلى سوق القرية المجاورة، لنقوم بتحضيرات الزواج، ونختار ما يلزم من أقمشة وهدايا وزينة، فهذه الأيام لا تُعاد، ولا يليق أن نترك التفاصيل تمر بلا ترتيب.»

حملت كلماتها بين ثناياها حرص الأم التي تولي كل صغيرة وكبيرة، راغبةً في

جعل هذا اليوم ذكرى لا تُنسى، فرصة لتقريب القلوب قبل ربطها، ولبناء أساس متين لعلاقة لا تزال تتشكل.

لم يكن محسن بحاجة إلى تكرار أو جدال، فقد وجد في عيني والدته دعوة صادقة تنبع من عمق الحنان، فلم يجد مبررًا للرفض، بل وافق على الفور.

وتوالت الموافقات من الجميع، يتحدثون بلهفة وترقب، مُعلنين استعدادهم للغد

الذي يحمل في طياته بداية فصل جديد من حياتهم، عازمين على أن يكون مليئًا بالفرح والوئام، وكأنّهم جميعًا ينتظرون اللحظة التي ستجمعهم تحت سقف واحد، يحتفلون فيها ببداية رحلة مشتركة.

ذهب الجميع إلى الفراش، غارقين في أحلامهم، بينما بقيت سارة مستيقظة تغسل الأواني بعد طول تعب، فكانت كثرًا بسبب وجود عائلتين في البيت. كانت

حركة يديها متكررة، لكن ذهنها كان مشغولًا بأفكار أعمق وأثقل من عناء اليوم.

فكرت في الفصل الجديد من حياتها الذي على الأبواب، في زواجها المقرر وهي لم تتجاوز الخامسة عشرة من عمرها، لشخص لا يحبها، أو ربما لم يعرف كيف يحبها. تأملت واقعها المرهق، وبينما تتلمس برودة الماء بأصابعها، تساءلت

كيف ستكون الأيام القادمة، وكيف ستتعامل مع قسوة القدر الذي اختار لها هذا الطريق.

حين سكنت حركة يديها، غلبها السهر، وأدركت أنها لن تستطع النوم. فاقتربت من دفترها وبدأت تسطر كلماتها، محاولة أن تفرغ ما في قلبها من حيرة وألم وأمل خافت، لتحول أفكارها المتشابكة إلى

سطور تشكل ملاذًا لها، وحيدة في ليالي الوحدة الطويلة.

"أكتب الآن وأنا لا أعرف هل أبكي أم أبتسم...

في الخامسة عشرة من عمري، وسوف أتزوج، لا لأنني أحب، بل لأن الحياة قررت عني.

هم يقولون: هذا قدرك... وأنا أقول: لكني ما زلت طفلة!

أخاف من الغد، من نظرات رجل لا يراني إلا ظلًّا لامرأة أخرى، أخاف أن أعيش عمرًا كاملاً أبحث فيه عن دفء لم يمنح لي.

أريد أن أصرخ:

أنا لست وعاءً يُملأ بالتقاليد،

أنا إنسانة... لي قلبٌ يحلم، وعقلٌ يتأمل، وروحٌ تُحب أن تُختار لا أن تُجبر.لكن لا أحد يسمع... لا أحد يرى...

فأكتب، لأن الكتابة لا تحكم، لا تُجبر، ولا تَخذل. أكتب لأحفظ شيئًا مني، من زهراء التي قد تُنسى يومًا في زحمة الأدوار المفروضة."

أنهَت زهراء كلماتها وأغلقت دفترها بتنهيدةٍ خافتة، وكأنها تطوي معها جزءًا من ألمها الصامت. نظرت من نافذة الغرفة الصغيرة إلى السماء، كانت النجوم هناك تلمع بهدوءٍ يشبه سكون

قلبها المُثقل. لكن سرعان ما تذكرت أن الغد ليس لها، بل لعائلتين تنتظران التسوق، وعليها أن تستيقظ باكرًا لغسل ملابس الجميع قبل الرحلة. لم يكن أمامها خيار، فحتى التعب لم يكن مبررًا كافيًا للراحة.تمددت على الفراش، وهي تقول لنفسها: "غدًا سيكون طويلًا... وأنا مجبرة على أن أكون جزءًا منه، حتى وإن كنت لا أملك من أمري شيئًا."

أغمضت عينيها، لا نومًا، بل هروبًا...

من فكرة الزواجِ، من الواقعِ، من مشاعر لا تجد لها جوابًا... فقط أمل صغير بأن تمر الأيام، وتمضي كما مضت الليالي من قبل.

مع إشراقة صباح جديد، انطلقت العائلتان إلى سوق القرية المجاورة، كلٌّ منهما يغمره الحماس بطرقه المختلفة. كانت

القرية تموج بالحياة، والألوان تتراقص بين أيدي الباعة، والوجوه يعلوها الفضول واللهفة لاقتناء ما يُفرح القلب أو يُزين المناسبة القادمة.

تفرّق أفراد العائلتين بين المحال والدكاكين، فكلٌّ منشغل باختيار مستلزمات الزواج، ولم يكن الجميع مجتمعًا في دكانٍ واحد، بل كلٌّ في زاويته.في أحد أركان السوق، كانت

"ترف" – الفتاة التي تسكن هذه القرية والتي كانت قلب محسن متعلقًا بها – تقف منهمكة في اختيار بعض الأقمشة.

لم تكن تعلم أن القدر على وشك أن يضعها في موقف لا يخطر لها ببال. فهي خياطة بارعة، تعتني باختيار التفاصيل بعين خبيرة.

اقتربت منها امرأة لم تعرفها من قبل، لكن وجهها كان هادئًا، وحديثها لطيفًا.

كانت أم محسن، تتأمل قطعة قماش بيدها، ثم التفتت إلى "ترف" وسألتها بودّ الأم:

– "يا ابنتي، هل تعتقدين أن هذا القماش جيد؟"

رفعت ترف نظرها إليها، بابتسامة مهذبة، وقالت بلطافة:

– "قولي لي أولًا لأي مناسبة تريدين ارتداءه، وسأدلّك على ما هو أجمل."

أجابت الأم بفخر لم يخلُ من الدفء:

– "لزفاف ابني، أريد أن أبدو جميلة في يوم فرحته." تغيّرت ملامح ترف لوهلة، لكنها تماسكت بسرعة، وقالت بهدوء الخبيرة:– "أنا خياطة، ودكاني قريب جدًا من هنا... إذا رغبتِ، أرسلي لي مقاساتك، وأخبريني بنوع القماش الذي تحبينه ولونه، وسأخيط لك فستانًا يليق بفرحتك بابنك تلك."

ابتسمت أم محسن بامتنان، دون أن تعلم أنها تفتح حديثًا مع قلب كان يومًا يسكن قلب ابنها.

دخل محسن وزهراء أحد دكاكين الأقمشة، وهما يعتزمان اختيار ما يليق بفرحٍ يُهيَّأ له الزمن. غير أن ما بدا في ظاهره مهمة بسيطة، انقلب إلى مناظرةٍ ذوقيةٍ طريفة،

عكست التباين العميق بين روحيهما المتناقضتين.

فكلما أشارت زهراء إلى قماش حريري بلونٍ هادئٍ كخجل الصبح، قال محسن ساخرًا:

– "أترينه صالحًا لعرس؟ كأنك اخترتِ كفنًا من حرير، لا ثوب ابتهاج!"

فترد عليه بهدوءٍ لا يخلو من حدّة:

– "وهل تراني أرتدي هذا الأحمر الصارخ؟ لو أردنا إعلان الحرب لاختيارناه، لا احتفال الزواج!" وقف صاحب الدكان بينهما، متردد النظرات، يقلب بضاعته كأنما يطلب النجدة منهما، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة مرهَقة تخفي ضيقًا لطيفًا. ظلّ يتابع نقاشهما المتقد، وقد لاحظ أنّ كليهما لا يرضى بأنصاف الحلول.

زهراء تميل إلى الألوان الحالمة، تلك الألوان الوردية، بينما كان محسن ينجذب إلى الصارخ من الألوان، كالأحمر القاني، والأخضر الزمردي، والأزرق البحري. وكأن كلًّا منهما يرى في اللون فلسفة حياة لا مجرّد ثوب يُرتدى.

وبعد جولات من الأخذ والرد، التفتت زهراء إليه، وقالت بلمحة ذكية:

– "ما رأيك أن نختار الأبيض؟ ناصعًا، نقيًّا، لا يخاصم ذوقي، ولا يعارض مزاجك."

ابتسم محسن وقال:

– "ولأول مرة نتفق... لعلّه بشير خير لما هو آت."

أما صاحب الدكان، فقد تنفس الصعداء، وقال ضاحكًا:

– "جزى الله الأبيض خيرًا، فقد أنقذني من انهيارٍ محقّق!"

ثم جلس خلف طاولته، يسترد أنفاسه كمن نجا من زوبعة، يهمس في نفسه: "إن كان هذا حال التحضيرات، فكيف بالزفاف ذاته؟"

وخرجا من الدكان، وقد بدا عليهما شيءٌ من الانسجام الخفي، كأن الخلافات

الصغيرة قد أسست لجسر جديد بين قلبين يتعلّمان كيف يتقاربان.

عادوا جميعًا إلى البيت بعد عناء يوم طويل، وقد بدت آثار التعب واضحة على وجوههم وخطواتهم المتثاقلة.

أصواتهم خفتت، وضحكاتهم ترقرقت بكسلٍ، وكلٌّ منهم أسرع إلى ركنٍ يستند

إليه، باحثًا عن راحة مؤقتة من تعب السوق والازدحام والضجيج.

أما زهراء، فقد دخلت معهم، لكنها لم تدخل معهم إلى عالم الراحة. كانت تمسك بالأكياس في يديها، وتجمع البقايا بعينيها، وتنتظر، دون أن تُمنَح حتى دقيقةً واحدة لتلتقط أنفاسها.

وقفت أمها عند باب الغرفة، نظرت إليها نظرة الأم العارفة بمكان كل فرد في

البيت، وقالت لها بنبرة رتيبة، لا رجاء فيها ولا شكر:

– "زهراء، حضّري لنا الغداء، الجميع متعب."

لم تعترض زهراء، ولم ترد. فقط رمشت عينيها ببطء، كأنها تطرد دمعةً صغيرة لم تجد الوقت لتظهر. ثم مشت بخطى هادئة إلى المطبخ، كأنها تعرف أن التعب في هذا البيت ليس سببًا كافيًا للراحة.

بينما كانوا يتناولون الغداء على مائدة متواضعة، امتزج فيها صمت التعب بأصوات الملاعق والخبز المكسور، التفتت أم زهراء إلى ضيفتها أم محسن، وكأنها تذكرت شيئًا فجأة، وسألتها باهتمامٍ عابر:

– " يا أم محسن، ماذا اشتريتِ من السوق اليوم؟ هل وجدتِ ما يرضيكِ؟"

رفعت أم محسن رأسها وقد ارتسم على وجهها بعض الحيوية، وقالت:

– "رأيت خياطة في السوق، شابة خلوقة، تعرف كيف تختار القماش بعين خبيرة. دلّتني على دكانها، وقالت لي: 'أعطني مقاساتك، ونوع القماش الذي تفضلينه، وسأخيط فستانًا يليق بفرحة زفاف ابنك.' أعجبتني طريقة حديثها وثقتها، لكنها كانت لحظة سريعة، ولم

أستطع الذهاب معها إلى الدكان، كنت متعبة جدًا."

ثم التفتت إلى ابنها، الذي كان يجلس قبالتها، يقطّع اللقمة بعناية لا تشبه شهيّته المعتادة، وقالت بنبرة أم تأمر ولا تطلب:

– "أريدك يا محسن أن تذهب إلى دكانها بعد الغداء، وتعطيها القماش الذي

اخترته، مع القياسات واللون، لا أريد أن أتأخر في تجهيز الفستان.

وافق محسن على الذهاب، وهزّ رأسه بهدوء كأن الأمر لا يعنيه كثيرًا، لكن في داخله كان شيءٌ ما يتحرك. كان يعلم أن ترف خياطة، أو على الأقل كانت تحب الخياطة حين كانا يتحدثان في البدايات، لكنه لم يكن متأكدًا أنها هي نفسها التي التقت بها والدته. في آخر مرة رأى فيها

ترف، كانت لا تزال تحلم بامتلاك دكان، ولم يكن بين يديها سوى خيوط الأمل وبعض الرسومات.

ناولته والدته ورقةً صغيرة كُتب فيها العنوان، وقالت له:

– "بعد أن تنهي كوب الشاي، اذهب. أنا متحمسة لأرى إن كانت تلك الفتاة خبيرة كما بدا من حديثها."

أخذ الورقة من يدها دون تعليق، ورفع كوب الشاي إلى فمه ببطء.

لم يكن الشاي ساخنًا بما يكفي ليشغل أفكاره، ولا الحديث خفيفًا بما يكفي ليجعله يتجاهل ما يدور في رأسه.

هل ستكون هي؟

وهل سيكون في ذلك اللقاء ما يوقظ الماضي، أم يدفنه إلى الأبد؟

وقبل أن يهمّ بالخروج، أوقفته أم محسن بعبارة ملأتها بساطة الأمهات ودهاؤهنّ معًا، وقالت وهي تعدّل طرف وشاحها:

– "آه، نسيت أن أخبرك... أنا قلت لها إن ابني العريس سيأتيها بنفسه، فلا تخجل من ذلك، هذا فخر لي."

نظر إليها محسن وقد ارتفع حاجباه بدهشة خفيفة، ثم ابتسم ابتسامة باهتة، وقال:

– "لا بأس، لا يوجد ما يُخجل."

ردّت عليه، وهي تلوّح بيدها كأنها تؤكد له الأمر أكثر:

– "قلت لها: ابني بنفسه سيأتيك، فخيطتك لفستاني شرف، وهو سيتفاهم معك على كل شيء."

لم يُجِب، فقط أخذ مفاتيحه بصمت، وكأن الكلمات التي سمعها الآن أثقلت خطاه أكثر مما كانت. خرج من البيت، تتأرجح في ذهنه صورتان: صورة أمه التي تتحدث عن الزفاف بأمل، وصورة ترف التي ربما ينتظره لقاؤها في الزاوية التالية من السوق... فهل سيكون لقاءً عادياً؟ أم أن الأقدار رتّبت له شيئًا لا يتوقّعه؟

دخل محسن إلى الدكان، فإذا ببائعة صغيرة تقف خلف المنضدة، لم يكن يعرفها، وكانت هي بدورها تنظر إليه باستغراب، فقد لم تعرفه أيضًا. تقدّم محسن بثقة، وقال لها بصوت هادئ ولكن واضح: – «أنا من القرية المجاورة ، أمي أوصتني بأن أخبركِ أن

صاحبة المحل قد كلفتكِ بخياطة فستان يليق بزفافي.»

كان حديثه مُلزَمًا، لكنه رقيق في نفس الوقت. وما أن بدأ يتحدث عن زفافه، حتى انفتح باب الدكان على مصراعيه، ودخلت ترف فجأة، وبمجرد أن سمعت كلمة "زفافي"، اندفع توتر غريب في نفسها،

فما كان منها إلا أن أسقطت كل ما كانت تحمله بيديها على الأرض.

التفت محسن إليها بدهشة، وبدت هي أيضاً مترددة، ثم توجهت إلى أختها الصغيرة وقالت بنبرة حازمة وكأنها تصدر أمراً لا يقبل النقاش:

– «اذهبي الآن، عودي إلى المنزل.»

خرجت الأخت من الدكان، تاركة الجو مشحونًا بالدهشة والتوتر،

فيما وقفا محسن وترف وجهاً لوجه، حيث كانت نظراتهما تحمل الكثير من الأسئلة والصمت الذي يُخبر بما لم يُقال بعد.

وقفت ترف أمامه، والهواء في الدكان صار أثقل من أن يُستنشَق. لم يكن ثمة شيء يتحرك سوى نبضات قلبها، المتسارعة لا فرحًا بل وجعًا، كأن كل

سنوات الصبر قد اجتمعت في تلك اللحظة لتعلن تمرّدها. نظرت إليه طويلًا، ثم قالت، بصوتٍ متهدج يحمل رائحة الماضي ولهيب الخذلان:-«أهكذا إذًا تُكافَأ السنوات؟ سنواتٌ من الصبر، والانتظار، واليقين الذي لم يخُنك يومًا، تنتهي بأن تأتي إليّ تحدّثني عن فستانٍ لامرأةٍ أخرى؟»

خفض محسن نظره، وكأن عينيها مرآةٌ تعكس ذنبه، لكنها لم تترك له مهربًا، فأكملت:

– «كنتُ أظنّك حين تعود، تعود بي لا عني... تعود بنا، لا وحدك. فكيف استطعتَ أن تَخطو فوق وعدٍ كان بيننا؟ كيف مضيتَ إلى أخرى، وكأن قلبي لم يكن لك وطنًا؟»

اقتربت خطوة، بصوتٍ أكثر ثباتًا من كل الانكسار الذي يسكنها:

– «أما زلت تذكر حين قلتَ لي: "لن أتزوج إلا من تسكن قلبي"؟ فهل نزحتُ منه دون علمي؟ أم أنك أنت من هجّرتني بصمتك؟»

أراد أن يتكلّم، أن يبرّر، لكن الكلمات خانته، فآثرت ترف أن تختم، بعينين تلمعان بكبرياء الجراح:

– «اذهب، وأخبرها أن الفستان سيخيطه قلبٌ خذل قلبًا، وأن عروسه كانت ذات يومٍ، خيطًا من روحه، قُطِعَ دون سبب.»

ثم استدارت إلى دكانها، حيث اعتادت أن تحيك الأقمشة... أما اليوم، فكانت تحيك الصمت.

تقدّم محسن بخطواتٍ مترددة، بينه وبينها مسافات من الذكرى والصمت. وقفت ترف قبالته، لا تزال في وقفتها الشامخة، وإن كان الحزن يختبئ بين أهداب عينيها.

نظرت إليه طويلًا، ثم قالت بصوتٍ ناعمٍ لكنه مغموسٌ بوجعٍ قديم:

– "اذهب يا محسن... أتمم طريقك كما شئت، فقد اخترتَ، ولن أكون حجر عثرة في دربك."

ثم استقامت في وقفتها، ورفعت رأسها بكبرياء الأنثى التي لم تُهزم، وإن انكسر قلبها في الخفاء:

– "سأجهّز لأمك فستانا كما وعدتها... بل سأحمله بنفسي إليكم، يوم الفرح، يوم الزينة والتهاني."

وصمتت لحظة، كأنها تلتقط نفسًا أخيرًا قبل نزف الحقيقة، ثم تابعت بنبرةٍ حاسمة:ـ"سأدخل داركم أمام الجميع، وسأهنّئ عروسك، تلك التي فضّلتها عليّ. سأبتسم لها، وأقول لها: مباركٌ لكِ، مباركٌ بأخذكِ ما ليس لكِ... مباركٌ لكِ رجلًا كنا نحلم به سويًّا، فأصبحتِ أنتِ له، وبقيتُ أنا حكايةً تُروى في قلبه القديم."

أغمضت عينيها لحظة، ثم فتحتهما وقد جفّ الدمع قبل أن يُولد، وقالت:

– "لا تقل شيئًا... فلا فائدة من تفسير المتأخرين. لقد قلتَ كلّ ما يجب حين صمتَّ عن حبّنا."

وقف محسن كأن الزمان توقف عند قدميه، وكأن الكلمات التي نطقتها ترف كانت رصاصًا مغطّى بالعطر، يخترق

القلب دون أن يريق دمًا، لكنه يترك فيه ألمًا لا يُمحى.

ارتبك، تطلع في عينيها، كمن يحاول أن يقرأ سطورًا كتبها بنفسه ثم أنكرها، وقال بصوتٍ خافتٍ كأن الهواء يخونه: – "ترف... أنتِ لا تعلمين شيئًا، أو ربما تعلمين كلّ شيء وتُخفين ذلك عني عمداً. لم أفضّل أحدًا عليكِ، بل فضّلتُ الصمت حين خانني الظرف، وخنقتني العادات."

اقترب خطوة، ثم توقف، خشية أن ينهار ما تبقّى من وقار الموقف، وقال بنبرة منكسرة:

– "كنتِ قدري... لكنّ القدر لا يسأل عن أمنياتنا. لقد انتظرتُكِ طويلاً، طويلاً بما يكفي لأن أصدّق أن الحب وحده لا يكفي."

ثم مرّر كفه على جبينه، كأنّه يمحو ملامح خيبةٍ، وتابع:

– "إن حملتِ الفستان، فاحمليه كما تحمل الأم كفن وليدها... وارفعي رأسكِ، لأنكِ أنتِ وحدكِ كنتِ الأصل، وما سواكِ... ظلّ لا يعرف إلى أين ينتمي."

رمقها بنظرة أخيرة، فيها من الحب ما يُغني عن ألف اعتذار،

ثم استدار ببطء، ومضى... لكنه مضى بجسدٍ ثقيل، وقلبٍ تركه خلفه، يقف عند قدمي ترف، لا يريد الرحيل.

وقبل أن يخرج تمامًا من الباب، توقف، وكأن شيئًا في داخله رفض أن يُغلق هذا الفصل بلا كلمة أخيرة. استدار ببطء، ونظر إليها نظرةً كانت مزيجًا من الحنين والخذلان، وقال بصوتٍ خافت، لكنه واضح كأنه قُدّ من الصدق:- "ترف... اعلمي أنني... لم أحبّ غيرك قط." ثم ابتسم ابتسامة باهتة، كأنها محاولة بائسة لتضميد جرحٍ مفتوح، وأضاف:- "وإن تزوّجتُ غيرك... فاعلمي أنها لا

تشبهك بشيء. كنتِ الأولى... وستبقين الأخيرة في قلبي، حتى وإن اختارت الحياة غير ذلك."

ثم مضى، ولم تنظر خلفه، لكن دمعها فعل.

ما إن أُغلق الباب خلفه، حتى شعرت ترف بأن المكان أصبح أكثر ضيقًا، وكأن الجدران اقتربت منها لتُطبق على صدرها. ظلت واقفة في منتصف الدكان،

لا تحرّك ساكنًا، تُحدّق في الفراغ الذي تركه،

وكأن عطره لا يزال معلقًا في الهواء، وكأن كلماته الأخيرة لم تغادر جدران المكان بعد.

"لم أحبّ غيرك قط"... جملة كادت ترف أن تسند عليها سنواتها الضائعة، لكنها جاءت متأخرة... ككل الأشياء التي تأتي بعد الانهيار.

جلست على كرسيّ صغير قرب النافذة، وسندت رأسها بكفّيها،

وأطلقت لأنفاسها المكتومة العنان. لم تبكِ، بل كانت تحدّق في البعيد بنظرة لا تشي بشيء سوى الانكسار النبيل. كانت مكسورة، نعم، لكنها لم تكن مهزومة. كانت تتألّم بصمتِ الذين اعتادوا ألّا يسمع أحد أنينهم.

سألت نفسها مرارًا:

"لِمَ لم يُقاتل لأجلنا؟ لِمَ سمح للوقت أن يُطفئ كل شيء بيننا؟ ألهذه الدرجة كان حبّنا هشًّا؟"

لكنها، برغم كل هذا، لم تكرهه... بل كانت تحبّه كأنّه جزء منها، كأنّه مرآتها،

وإن تحطّمت، لا تزال تشتاق لانعكاسها فيها.

همست لنفسها:

– "يا قلب، لا تُعاتبه كثيرًا... هو لم يخن، بل فقط خاف، وقلوب الضعفاء لا تنتصر في معارك العشق."ثم نهضت، أمسكت القماش، وبدأت تقصّه بخبرة الخيّاطة... لكن عيناها كانتا تقصّان ما هو أعمق من القماش... كانتا تفصلان

بين الذاكرة والواقعِ، بين الحبّ والخذلان.

عاد محسن إلى البيت بخطى مثقلة، لا تُشبه خطوات رجلٍ عاد من قضاء حاجةٍ بسيطة، بل كأنّه عاد من ساحة معركة خسر فيها أكثر من كرامته. كانت يداه فارغتين، وقلبه مثقوبًا، لكن وجهه متماسك كقناعٍ من هدوءٍ كاذب.

استقبلته أمّه بعينٍ مليئة بالترقّب، وقالت بصوتٍ مُستعجل:

– "ماذا قالت لكِ الخياطة؟ هل وجدت الدكّان؟ هل فهمت ما تريده؟ هل بدا عليها أنها خبيرة كما قالت؟"

رمقها بنظرةٍ قصيرة، ثم أدار وجهه عنها وكأنّه يبحث عن ملجأٍ من الأسئلة. جلس على أقرب مقعد دون أن يخلع حتى حذاءه، وكأنّه نسي وجوده.

– "نعم، وجدت المكان... وأعطيتها ما يلزم."

قالها بصوتٍ خافت، يحاول أن يخفي به كل ما لا يمكن قوله. لم تلاحظ أمّه الارتجاف الخفيف في نبرته، أو التنهيدة التي ابتلعها بين كلماته. – "وهل كانت هي من قابلتك؟ أم إحدى العاملات؟"

أجاب باقتضاب، دون أن ينظر إليها:

– "لا... كانت أختها، ثم خرجت هي لاحقًا." أومأت الأم برضا، ظنًا منها أنّ الأمور تسير كما أرادت. أما هو، فظلّ صامتًا، يحدق في أرض الغرفة، وكأنّه يرى ظلال قلبه الراحل تحت أقدامه.لم يقل لها الحقيقة... لم يخبرها أنّ عيناها التقيا، وأن صوتها المكسور غاص في قلبه كسهم اندفع لكي يقتل قلب أحدهم.

لم يقل أنّ الجرح القديم قد انفتح مرة أخرى... وأنّ فستان الزفاف، الذي خُصّ لها يومًا، سيُخاط بيدها، لكن لأجل غيرها. في تلك الليلة، تمدّد محسن على سريره كما لم يفعل من قبل، لا بحثًا عن نومٍ، بل هربًا من يقظةٍ تؤلمه. كانت جدران غرفته تضيق عليه، رغم سكونها، وكأنها تردّد ما دار في خلده من كلماتٍ لم تُقال، وعتابٍ لم يُحتمل.

أغمض عينيه، لكن وجهها كان هناك، يتراءى له بوضوح، كما لو أن قلبه قد نسخ ملامحها على جفنيه. ترف... لم تنطفئ نظرتها في داخله رغم السنين، ولا خمدت نيران عتابها الذي سُكب عليه كجمرٍ قديم اشتعل من جديد. سمع كلماتها تعود كأنها قيلت الآن: «سآتي إليكم، وأحمل الفستان بيدي، لأهنّئ تلك التي فضّلتني عليها، وأقول لها: ألف مبروك بأخذكِ ما ليس لك.» شدّ الغطاء على

صدره، كأنّه يحاول أن يخمد نبضًا يفضحه. كيف يفسّر لها؟ كيف يقول لها إنّه لم يختر سواها، وأنّ الأيام هي التي غيّرت الملامح، لا القلوب؟ كيف يشرح أنه لم يكن يومًا خائنًا، بل كان حائرًا بين العائلة والتقاليد، وبين حبٍ اختُبر بالصمت والنسيان الإجباري؟

همس لنفسه وهو يحدّق في السقف:

– "لم أحبّ غيركِ... ولم أعرف طعم النبض إلا بين يديكِ. لكنني اليوم أقف على حافة خَيارٍ لم يكن لي منذ البداية."

ثم أدار وجهه إلى الحائط، أغلق عينيه مجددًا، لا ليرتاح، بل ليتظاهر بالنوم أمام قلبٍ لم يهدأ.

في عتمة الغرفة، جلست ترف عند طرف السرير، ويداها متشابكتان في حجرها،

كأنها تمسك بهدوئها خشية أن يتبعثر. لم تخلع حجاب النهار عن قلبها، وكأنها لم تغادر بعد مسرح ذلك اللقاء الذي كسّر صمت السنوات الطويلة بلحظةٍ واحدة.كانت كلماتها لا تزال معلّقة في الهواء، تتردد حولها كأغنية قديمة لا تستطيع كتمها، ولا تملك الجرأة على إكمالها.

«اذهب... وسأجلب الفستان بيدي، لأرى تلك التي فضّلتها علي، وأقول لها: ألف مبروك بأخذك ما ليس لك.»

همست لنفسها بمرارة:

– "هل قلتُ ما يكفي؟ أم كنتُ قاسية؟"

لكن القلب لا يعرف الليونة حين يُخذل، ولا يجيد الصمت حين يُستفزّ برؤية من أحبّ وهو يرتّب تفاصيل زفافه لامرأةٍ غيرك.

تكومت في فراشها، لا بحثًا عن دفء، بل اتّقاءً لانهيارٍ داخليّ لا يُرى. كانت تتمنى لو لم تدخُل تلك اللحظة. لو لم ترَ وجهه، أو تسمع صوته يقول "زفافي". تلك الكلمة التي قُطعت بها آخر خيوط الأمل.

لكن ما أوجعها أكثر... أنه لم يُنكر حبّهما، ولم يشرح شيئًا. اكتفى بالصمت، وكأن حبه لها كان ذكرى تُطوى.

أغمضت عينيها، فسقطت دمعة واحدة على الوسادة، تبعتها ثانية، ثم ثالثة، حتى استسلمت لصمت الليل الذي لا يواسي.

في مساء هادئ، امتزج فيه ضوء الغروب برائحة الطعام المنبعثة من المطبخ، كانت عائلة محسن قد رتبت كل

شيء بدقة، استعدادًا لاستقبال عائلة زهراء. الأطباق مُصفّفة، الزينة بسيطة ولكنها أنيقة، والقلوب... متوترة في صمتٍ لا يُعلَن.

كانت أم محسن تتحرك بين الغرف، تعطي الأوامر بنبرةٍ ناعمة تخفي قلقها، وتراقب الساعة بين الحين والآخر. أما محسن، فكان جالسًا في أحد الأركان، صامتًا،

يحمل كوبًا لم يشرب منه، وكأنّ بينه وبين الضيافة فجوة لا تُردم.

حين دقّ الباب، وقفت أم محسن بسرعة، وعدّلت حجابها بلمسة خفيفة، ثم فتحت الباب بابتسامةٍ رحبة:

– "أهلًا وسهلًا، نوّر البيت بحضوركم."

دخلت عائلة زهراء يتقدّمهم والدها بهدوء وهيبة، وخلفه أم زهراء ترتدي ابتسامةً واثقة، بينما بدت زهراء أكثر

تحفظًا، تمشي بخطوات متزنة، وعيناها تبحثان عن موطئ نظرٍ لا يُحرج.

جلس الجميع في الصالة، تبادلوا كلمات المجاملة، وضحكات خفيفة بدت وكأنها تصدر من على سطح الجليد. لم يطل الوقت حتى تسرّبت رائحة العشاء من المطبخ، فدعتهم أم محسن إلى المائدة.

كان العشاء لذيذًا، لكن المذاق لم يكن في الطعام وحده، بل في تلك النظرات

المتبادلة، وتلك الكلمات المحسوبة التي تُلقى ثم تُوزَن في قلوب الجالسين.أما محسن، فكان يراقب زهراء من طرف عينه، يحاول أن يقرأ في ملامحها شيئًا من الاطمئنان، أو حتى شيئًا من الدهشة...

لكن زهراء، كانت هادئة، كأنها تقرأ مشهدًا لا تعرف إن كانت جزءًا منه أم شاهدة عليه.

كان محسن جالسًا عند المائدة، تحدّثت الأحاديث حوله، لكن عينه لم تفارق زهراء، يمعن النظر فيها بصمتٍ ثقيل، يقارن بين ما تراه عينيه الآن وبين صورة ترف التي ما زالت تعيش في قلبه وعقله.

تنظر زهراء إلى محسن بعفوية، لا تدري أن نظراته المليئة بالتردد والحنين تتسلل إلى أعماقها، فتشعر بثقل غير مرئي يثقل

صدرها. أما هو، فكان يتألم في صمت، ذلك الألم الذي يختلط بين عشقٍ دفين وحزنٍ عميق على ما فات، فكلما رآها استعاد في ذاكرته تفاصيل ترف، رقتها، بسمتها، وحتى صمتها.

في عينيه، كانت زهراء مجرد ظلٍ باهت لا يستطيع أن يحلّ محلّ ترف، وإن حاول أن يُخفي ذلك، فإن قلبه لم يكن يخدع،

فذاكرتُه لا تزال متشبثة بذاك الحلم الذي لم يتحقق.

باتت عائلة زهراء ضيوفًا في بيت محسن، متعاضدين في مساءٍ ملؤه الصمت والتوتر الخافت، تنتظر أيامًا تحمل في طياتها ما قد يغير مسار العلاقة بين الجميع.

وفي صباحٍ باكر، بينما كان الندى لا يزال يقطر من أوراق الشجر، طرق الباب

بعنف، فأسرعت زهراء لفتحه، فإذا بـ"ترف" واقفة أمام العتبة، نظراتها صافية لكنها تحمل في ثناياها مزيجًا من الحيرة والعتاب.

قبل أن تبادر بالكلام، سمع محسن صوت الباب فنهض مسرعًا، متسائلًا عما يحدث، فتوجه نحو الخارج ليجد "ترف" تتحدث بهدوء مع "زهراء"، وكانت

كلماتهما تهمس بأسرارٍ لم تزل غامضة لهما.

كان ذلك اللقاء بداية فصل جديد، حيث تتشابك المشاعر والحقائق، وتتصارع الأفكار بين الوفاء والخذلان، بين ما كان يمكن أن يكون، وما أصبح واقعًا لا مفر منه.

قالت ترف بثبات ووضوح لا يخلو من تحدٍ:

– "أنا الخياطة، لكنني لا أعلم من أنتِ، ولا ما تقربين إليهم."

غمر الصمت أركان الغرفة، كأن ثقل الكلمات الحائرة قد أغلق باب الحوار، وصمت محسن كان أبلغ من أي حديث، يعكس عجزه عن قول ما يختلج في صدره. وقفت ترف، عيناها الثاقبتان تحدقان بعمق في زهراء، تلك الفتاة التي بدت كأنها نسمة من ضوء الشمس في

صباح شتوي، بشعرها الأصفر الملتوي، وعيونها العسلية التي تشع دفئًا، والفستان الوردي الذي بدا كأنه نسج بعناية من زهور الصباح المتفتحة، ناعمة ولامعة في بهاءها.

ثم أطلقت ترف صوتها بهدوء حازم، كأنها تنقش سؤالها على صفحات اللحظة:

– "من تكونين بالنسبة لهم، يا جميلة؟"

تلك الكلمات لم تكن مجرد سؤال، بل تحدٍ يثقل الهواء، يحمل في طياته انتظار الإجابة التي قد تغير مجرى الأمور، أو تكشف خبايا لا يريد أحد مواجهتها.

لم تلبث زهراء أن أجابت بصوت واثق، يكاد يحمل بين حروفه برودة الحجة وصلابة الثقة:

– "أنا ابنة عمهم."

صمتٌ آخر عمّ المكان، لكن هذه المرة كان مشحونًا بتوتر جديد، حيث اصطدمت الحقيقة بحواجز المشاعر والأسرار، وصار السؤال يتردد في الأجواء: هل ستغير هذه الإجابة مجرى العلاقة بينهم؟ أم ستزيد الأمور تعقيدًا؟

قالت ترف بثباتٍ لا يخلو من ألم:

– "أنا الخياطة التي خطت فستان زفاف عشيقه."

ثم نظرت زهراء إلى محسن ثم إلى ترف، بنظرة مشحونة بالدهشة والاستفهام، وقالت بحدةٍ تحاول كتمانها:

– "هل أنتِ عشيقة محسن؟"

ابتسمت ترف ابتسامةً باهتةً، لكنها لم تخفِ في عينيها ألمًا عميقًا، وقالت بهدوءٍ مؤلم:

– "لم أكن يومًا سوى تلك التي أحب،

ولكن الأقدار كانت أقوى مني. أما أنتِ، فما مكانك في قلبه؟"

التفت محسن بينهما، كمن بين نارين، وصمت للحظة قبل أن يقول:

– "كل ما بيننا قصة لم تكتمل، وأنا الآن أمام حقيقة لا أستطيع إنكارها."

ساد الصمت الحاضر، كأنه يحبس أنفاس الجميع، وتركت الكلمات ثقلها في

الهواء، غير أن القلوب كانت تنبض بخفايا لم تُفصح عنها بعد.

وقفت ترف أمامهما بعينين ملؤهما الألم والغضب، وصوتها يئنّ بالعتاب والخذلان:

– «محسن، كيف لك أن تتحدث عن زفافك وكأن قلبي لا يشعر؟ كيف تملك الجرأة أن تترك حبنا خلفك وتمضي إلى

أخرى؟ أكنت تعتقد أن العشق يُنسى كأنه مجرد وهم؟»

ثم وجّهت نظراتها الحارقة نحو زهراء وقالت بنبرة تحدٍّ:

– «وأنتِ، يا زهراء، التي دخلت حياتي كالظل، سرقتِ حبي الذي لم أتركه لأحد سواكِ، استحوذتِ على قلبه الذي كنت

أظنه ملكي. كيف تسمحين لنفسك أن تسرقي ما هو ليس لكِ؟»

ارتجف محسن أمام شدة عتابها، وصمتت زهراء، كأن الكلمات تاهت في حلقها، وتجمّد الوقت في تلك اللحظة التي رسمت فيها ترف حدود الألم والخيانة، وحددت ما تبقى من قلوبٍ مشتتة بين غدر الماضي وقسوة الحاضر. كان الصمت بينهما أبلغ من كل خطاب،

يصرخ بمرارة حب ضائعٍ، وبحزن عميق لا يذبل رغم قسوة الأيام.

ثم تركت ترف الفستان على الطاولة بهدوء، كأنها تضع على هذا القماش ثقل سنوات الألم والخيانة، ثم استدارت دون كلمة، وغادرت المكان بخطوات متثاقلة محمّلة بثقل القلب المجروح. أما زهراء ومحسن واقفين، يتبادلان النظرات في صمتٍ ثقيل، حيث كانت عيونُهما تتحدث

دون كلمات، تنقل كل ما يخالجهما من مشاعرٍ متشابكة؛ من حيرة وألم، ومن خذلان وأملٍ خافت.

في ذلك الصمت، تكشفت كل الحكايات القديمة، وكل الوعود المكسورة، لتظل النظرات رمحًا تخترق الصمت، تحكي ما يعجز اللسان عن التعبير عنه، وترسم لوحةً حزينةً من قلوبٍ ضائعة بين الأمس واليوم.

نظرت زهراء إلى محسن بعينين دامعتين، وقالت بصوتٍ خافت لكنه يحمل ثقل الاعتراف:

– "أنت محقّ، في حبّها، فهي أفضل مني بحق. أما أنا، فلا أنا إلا خادمة في هذه الحياة، لا أملك رأيًا يُذكر، ولا صوتًا يُسمع. تركتُ كل أحلامي خلف صمتي الطويل، وأناملي تاهت بين واجبات لا تنتهي."

ثم توقفت قليلاً، وكأنها تستجمع ما تبقى من قوة في داخلها، وأضافت بحسرة:

– "أما هي، فقد علّمت نفسها كيف تحلم، وبفضل عزيمتها أصبحت لها دكانٌ للخياطة والنسيج، تحمل فيه بساتين آمالها، وتنثر خيوط المستقبل بخبرة وحنان."

كان الكلام كجرحٍ مفتوح على وقع الصمت، أما محسن فكان يستمع وهو

يغوص في دوامة من المشاعر المختلطة، بين الشفقة والإعجاب والندم.

حلّ صباح يوم الزفاف، يحمل في نسماته عبق الفرح وألوان الأمل، يومٌ عُدّ له الجميع بقلوبٍ مفعمة بالتوقع والترقب.

في بيت محسن، كان الجميع يتحرّك في جوٍ من الحماس والرهبة، تحضيرات دقيقة تنساب بسلاسة رغم تعبيرات التعب التي تخطّت ملامح الحاضرين.

زهراء، بوجهها المستبشر وفستانها الأبيض الناعم، كانت تبدو كزهرة تفتحت لتوّها تحت ضوء الشمس، تحمل في عينيها مزيجًا من القلق الخفي.

محسن، في زيه الرسمي، وقف أمام المرآة يتفحص ملامحه، ولكن قلبه كان مشغولًا بصراع خفي، بين ماضيه مع ترف وحاضره مع زهراء، بين الودّ والعتاب، وبين قراراتٍ لم يكن سهلاً

اتخاذها. حين وصلت الزفة، ارتفع صوت الطبول والدفوف، وتعالت أصوات الدعاء والتبريكات من الجميع، وهم يرافقون العروسين نحو بداية جديدة.

التقت العيون بين محسن وزهراء، حديث بلا كلمات، سكون يحكي ما في القلوب، والتزمت زهراء الصمت، وهي تعلم أن في هذا اليوم لا مكان للحقد أو الألم، بل لفرحة مبنية على أمل المستقبل.

أما في القلب، فلا تزال أصداء الماضي تهمس، لكن اليوم هو يوم اللقاء والتوحد، يوم تتسابق فيه القلوب على أن تنسج حياة جديدة، تليق بجميل الأماني، رغم كل ما مضى.

لم تكن حياة زهراء بعد الزواج أفضل حالًا مما كانت عليه قبل أن ترتدي فستان العروس. فقد أصبحت أسيرة بيت محسن، تسير في أدوار متكررة لا تنتهي، لا فرح يملأ قلبها، ولا راحة تهدئ روحها.

في النهار، كانت تخدم أهل محسن، تؤدي لهم واجباتٍ لا تعرف حدودًا، تلبّي طلباتهم كأنها خادمة لا حق لها في

التعبير أو الراحة. أما في الليل، فقد تحوّلت إلى خادمة لمحسن نفسه، تنصت إلى صمته، وتحتمل قسوته، تحاول بضع كلمات، فتُقابل بالصمت أو بالبرود.

كانت زهراء تحسّ بثقل الوحدة، وبأنها فقدت ذاتها في هذا الزواج، صار حلمها بعيدًا، وحياتها لا تختلف كثيرًا عن حياة الفتاة التي كانت

قبل أن ترتبط به، بل قد ازدادت أعباءً وأحمالًا. تئنُ تحت وطأة واقعٍ لم تختاره، ولكنها تصمت، تحاول أن تبني جسورًا من الصبر والأمل، رغم أن جدران بيتها تزداد ضيقًا كل يوم، وعتمة الوحدة تغطي زوايا روحها المتعبة.

وبالرغم من كل ما حملته أيامها من تعبٍ وثقل، بدأت زهراء تشعر بتغيرٍ غامض

ينبعِ من أعماقها. لم يكن قلبها ليَقبل بسهولة واقعها المرير، لكنها وجدته يتسارع كلما وقع نظرها على محسن، ذلك الفلاح الوسيم الذي كان حديث قرية بأسرها، والذي تنافست عليه بنات القرية بعيون تفيض بالإعجاب.

كان محسن، رغم صرامته، يحتفظ بسحر خاص، يتراقص في محياه توهج حياة قاسية لم تزل تترك آثراً على ملامحه. مع

مرور الأيام، بدأ قلب زهراء يذوب شيئًا فشيئًا، وتتكسر حواجز الغضب والعتاب، ليولد في صدرها شعور غير متوقع: مزيج من الحنان، والشفقة، وربما... الحب.

كانت تلك المشاعر الجديدة تعيد إليها شيئًا من الأمل، فتحت شغاف قلبها، رغم كل ما جرى، لتشعر أن الحكاية بينهما لم

تنتهِ بعد، وأن بوسعها أن تصنعِ من بين رماد اليأس، دفء حياة جديدة قد تُضيء دروبها المقبلة.

كانت زهراء، رغم كل ما عانته، تبدو وكأنها تشرق في عيني محسن. لم تكن مجرد زوجة تؤدي واجباتها، بل كانت تعتني به بعناية نادرة، حتى عندما كان

يغضب ويصرخ، كانت تجد في رقتها وعطفها من يهدئ من روعه.

والإنسان بطبيعته، حين يلقى اهتمامًا صادقًا وحنانًا نادرًا، تبدأ مشاعره في التحول. وهكذا، بدأ قلب محسن يتغير شيئًا فشيئًا نحو زهراء، تتفتح في داخله بذور المودة التي ما كانت لتوجد لولا

دفء عطفها واهتمامها الذي كان يغمره بلا حساب.

كانت زهراء، بلا مبالغة، النور الخافت الذي بدأ يُذيب جليد مشاعره، فشيئًا فشيئًا، كانت تحفر لنفسها مكانًا في قلبه، رغم كل الجراح القديمة والذكريات التي لم تزل تعانقها.

لكنّه ما إن تتسلل إلى ذهنه صورة ترف، حتى يتلاشى ذلك الدفء ويتبدد بريق

العطف الذي نما في قلبه تجاه زهراء. ينهار كل ما بنته الأيام من مشاعر، ويعود محاصرًا في دوامة ذكريات عشقٍ عميقٍ لم تفقد بريقها رغم مرور الزمن. تلك الذكرى كانت أشبه بجرح نازف، يستعصي على الشفاء، يذكّره دومًا بأن قلبه ما زال أسيرًا لحبٍ لم يكتمل، حبٍ ظلّ يحوم في أركان روحه، يعيد له الألم ويطغى على كل ما سواه.

وفي يومٍ من الأيام، وبينما كانت أم محسن ترتّب أواني المطبخ بعد الغداء، التفتت إلى الجميع وقالت بصوتٍ فيه من الحزم بقدر ما فيه من الحنان:

– "كفانا هذا الجمود. ما رأيكم أن نذهب في سفرة، وإن كانت قصيرة؟

نغيّر بها الجو، ونمنح العرسان بعض الوقت لأنفسهم. الزواج لا يبدأ إلا حين يُتركا وحدهما، بعيدًا عن أعيننا وأسئلتنا."

تبادل أفراد العائلتين النظرات، فمنهم من ابتسم بخجل، ومنهم من أومأ بالموافقة دون اعتراض.

أما زهراء، فشعرت بالخوف يتسلّل إلى صدرها، وارتبكت أناملها وهي تطوي المنديل بين يديها. كانت تعرف أن الوحدة مع محسن ستجعلها أقرب منه، لكنها أيضًا كانت تخشى أن ترى في عينيه ما لا تستطيع احتماله من جفاء أو شوقٍ لامرأةٍ أخرى. محسن، من جهته، لم يُظهر اعتراضًا، لكنه شعر بانقباضٍ خفي. كان يدرك أن تلك اللحظات ستكون فاصلة بين ماضٍ لم يبرأ منه، وحاضرٍ

يحاول أن يصدّقه. ابتدأت الترتيبات للسفر، واتُّفق على أن تكون الرحلة صباح الغد. أما تلك الليلة، فكانت طويلة على العرسان... أطول من المعتاد، لأن الصمت فيها كان أعمق، والتفكير أثقل، والقلبان... بين الخوف والانتظار.

وفي الصباح رنّ هاتف المستشفى بأن حل بالعائلتين حادث سير مروع ،

وتوالت الخطوات المرتبكة في ممرات قسم الطوارئ. كان اليوم ثقيلاً، وأضواء الممر شاحبة، وكأنها تواسي من يجلسون تحته في انتظار خبرٍ يقلب حياتهم.

زهراء كانت تجلس على الكرسي ، ويداها متشابكتان في حضنها، ووجهها

شاحب كأن الدم جفّ منه. أما محسن، فكان واقفًا بجوارها، يمشي خطوة ويعود خطوتين، يتمسك بالأمل من جهة، ويغرق في الخوف من جهة أخرى.

أتى الطبيب، ملامحه لا تبشّر، وصوته خرج هادئًا، لا يحمل في نبراته وعدًا:

– "البقاء في حياتكم..."

سقطت الجملة على رأسيهما كالصاعقة.

شعر محسن أن الأرض تدور به،

وزهراء أطبقت يدها على فمها وكأنها تمنع صرخةً من الهروب. مات الجميع؟! في لحظة واحدة؟ كيف يمكن للبيت أن يخلو من الضحكات، من الأحاديث، من الطمأنينة؟!

لم يستوعب محسن، ووقف جامدًا كأن الزمن توقف عند تلك الكلمات. أما زهراء، فبكت بحرقة، دموعها تبلّل

خدّيها، ولم تجد سوى صدره لتحتمي به من هذا الواقعِ القاسي.

لأول مرة، شعرا ببعضهما بشكلٍ مختلف... لا كزوجين لم يختارا بعضهما، بل كناجين وحيدين من كارثةٍ جمعت

بينهما في الحزن، حين فرّقتهما الحياة في الحب.

جلس محسن على أحد كراسي الطوارئ، وقدما زهراء المرتجفتان لم تعد تقويان على الوقوف، فجلست قربه وهي تضع رأسها بين كفيها. كانا يبكيان... بكاءً

خافتًا تارة، وانفجاريًا تارة أخرى، وكأن أوجاع السنوات كلها قد تجمعت في تلك اللحظة.

لم يكن أحدهما يتوقّع أن تتحوّل الرحلة القصيرة إلى مأتم، ولا أن يصبحا وحدهما بعد أن كانت البيوت عامرة بالأصوات والأرواح والأحاديث.

محسن كان يبكي بصمت الرجال الذين لا يُسمح لهم بالبكاء، وزهراء تبكي كمن فقدت قطعة من قلبها، بل قلبها كله.

قال محسن وهو يحدّق في الفراغ:

– "لم أكن مستعدًا لفقدهم... ولا أظنني سأكون يومًا..."

أجابت زهراء من خلف دموعها:

– "ولا أنا... كانوا عالمي، والآن لم يتبقَ لي شيء..."

لكنها، رغم الانهيار، مدت يدها نحوه بتردد، فضمّها هو دون كلمة...

لم يكن بينهما حب، ولكن بينهما حزن واحد، وفقد واحد، وألم لا يوصف.

في تلك الليلة... لم يكونا زوجين فقط، بل كانا قلبين مكسورين، يتكئ كلٌّ منهما على الآخر كي لا يسقط.

في مساء خريفي هادئ، كانت الرياح تعصف بورق الأشجار كأنها تواسي قلبًا يتهاوى. جلست زهراء قرب النافذة، تحاول أن تكتم الدموع التي أثقلتها ليالٍ من الصمت والخذلان. دخل محسن إلى الغرفة بهدوء، يحمل فنجان قهوة لم ترتشفه يومًا، لكنها هذه الليلة كانت تحتاج إلى ما هو أكثر من الدفء.

رفعت عينيها إليه وقالت، بصوت مكسور لكنه ثابت:

– "أنا أعلم... أعلم أنك لم تحبني يومًا، وأن زواجك بي كان من أجل عائلتك فقط... من أجل أمك، من أجل اسم العائلة، لا من أجل قلبك."

توقف محسن، وكأن الكلمات باغتته.

أكملت وهي تبتسم بألم، والدمعة تنحدر بصمت:

– "أعلم أيضًا أنك ما زلت تعشق ترف... وأنك كلما نظرت إليّ، كنت تراها في ملامحي وتحاول أن تنكر ذلك."

سكتت للحظة ثم أضافت: – "لا أريد أن أكون ظل امرأة أخرى، ولا قيدًا على قلبك... غدًا نلتقي في المحكمة. يمكنك بعدها أن تعود إلى حيث تنتمي... إلى من تحب."

ثم نظرت إلى الأرض، تمسح دمعتها بإصبع مرتجف:– "سامحني فقط لأنني أحببتك في صمت... وما زلت."غادر محسن الغرفة ببطء، لكن خطواته لم تكن كعادتها. كانت متثقلة بالحيرة، مشوشة بندم لم يفهمه بعد. أما زهراء، فظلت وحيدة أمام النافذة، لا تنظر إلى الخارج... بل تنظر إلى نفسها، وتودع حلماً لم يزهر يومًا.

بعد رحيله من بيت زهراء، لم يجد محسن وجهةً يقصِدها سوى بابٍ واحد... الباب الذي أغلقته ترف منذ سنين، لكنه ظل مفتوحًا في ذاكرته، ينبض باسمها في كل لحظة.

وصل إلى دكّانها، الذي بات أنيقًا كصاحبته، يعجّ بالحياة، لكنه كان يحمل داخله جرحًا قديمًا. دقّ الباب بخجل المذنب، فتحت له وهي تحمل علبة من

القماش في يدها، وما إن وقع بصرها عليه حتى تجمّد الزمن في عينيها.

تقدّم خطوة وقال بصوت مبحوح:

– "ترف... جئتُك أخيرًا... وحدي."

لكنها لم تنتظر منه المزيد، بل قاطعته بنبرة جافة حادة كحد السكين:

– "جئتني متى؟ بعد ماذا؟ بعد أن بعت الحب من أجل إرضاء العائلة؟ بعد أن

تركتني أحارب وحدي بينما كنتَ تحتمي بصمتك؟"

ابتلع كلماته بصمت.

أكملت وهي تقترب منه بنظرة ملؤها وجع وكره دفين:– "ارحل يا خائن... لا أريد أن أراك مرة أخرى. فأنت لم تحارب من أجلي، لم تتمسّك بنا، لم تتخذ قرارك كرجل."

ارتجف صوته:- "ترف... أنا نادم..."لكنها لم تترك له فرصة:

- "ندمك لا يعنيني الآن. لقد وجدت رجلاً يُقدّر حبي، رجلاً لا يتردّد في أن يواجه الدنيا لأجلي، ولا يختبئ خلف تردده."
تنهّدت ثم قالت، بصوت يحمل قسوة الحياة ومرارة الفقد:- "لا أريد رؤيتك ثانية يا عديم الوفاء... يا من لم يعرف يومًا معنى الإخلاص."أغلقت الباب في

وجهه، ليس باب المكان، بل بابًا في قلبها ظل مفتوحا له لسنوات، أغلقته هذه المرة للأبد. ووقف محسن في الخارج، تحت غروب حزين، يحمل على كتفيه حباً خسره لأنه لم يكن جديراً به.

في طريقهما إلى المحكمة، كان الصمت يخيم على الأجواء، ثقيلاً كالغيم الرمادي قبيل المطر. زهراء كانت ترتّب شعرها بهدوءٍ مُصطنع، تُخفي دموعها خلف

كبريائها، بينما محسن يقود السيارة بنظراتٍ متقطعة نحوها، كأن قلبه يرتجف معِ كل خطوة تقترب من لحظة الفراق.

وفجأة، وبدون سابق إنذار، أوقف السيارة على جانب الطريق، فتح الباب، وخرج منها يسير في الاتجاه المعاكس.

تفاجأت زهراء، وصرخت:

– "إلى أين؟ نحن متأخران!"

لكنه التفت نحوها، وعيناه تلمعان بصدقٍ طال انتظاره،

وقال بصوت ثابت يخرج من أعماق قلبٍ كان مشوشًا لسنوات:

– "يا زهراء... لا أريدك أن تصبحي مطلقة، ولا وحيدة. وقولي هذا لا يعني أنني أراكِ ضعيفة أو ناقصة، فأنا أعلم جيدًا أنك امرأة قوية قادرة على أن تعيش دون رجل، لكن تفكيري ليس كتفكير أهل

قريتنا، أنا لا أراك امرأة عادية... بل أراكِ أنتِ، زهراء التي أصبحت بيتي حين فقدت كل شيء." اقترب منها، وقال بنبرةٍ أكثر دفئًا: – "أريدك، نعم، وأريدك أن تبقي معي... لا تفارقيني. لأنك تشبهين عائلتي، تحملين فيكِ دفء أمي، وطيبة أبي، وسكينة بيتنا القديم." تنهد، وكأنه يُفرغ وجعه القديم، ثم قال:– "إن كنتِ تريدين مواصلة الدراسة، فلنعد إلى المقاعد معًا. وإن كنتِ لا تريدين البقاء

في هذه القرية بعد فقدان عائلتك، فلنغادرها ونذهب إلى المدينة. سأسير خلفكِ حيثما تقودينني، فقط قولي لي بأنك لا تريدين الطلاق... بأنك ما زلتِ ترغبين فيّ."

زهراء لم ترد. لم تجد الكلمات طريقًا من قلبها إلى شفتيها. كانت الكلمات كلها ضائعة في سيلٍ من المشاعر.

وما كان منها إلا أن تقدمت نحوه، واحتضنته وبهذه تختصر كل صمتها، وكل وجعها، وكل حبها الذي كان يخشى الاعتراف.وبكت... بكت بصدق، وبكى قلبه معها.

ففي تلك اللحظة، لم تكن المحكمة نهاية، بل بداية.

مرت السنوات كغيمةٍ بيضاء عبرت سماء العمر بهدوء، وجفّت دموع الأمس على جبين الأيام. عاد محسن وزهراء إلى مقاعد الدراسة، كتفًا بكتف، لا كطالبَين فقط، بل كرفيقَين اختارا أن يكملا الطريق رغم كل ما هزّ جدران قلبيهما يومًا.

تخرّجا بتفوّق، وقرّرا أن يتركا القرية خلفهما، وأن يبدآ حياة جديدة في

المدينة، حيث لا تهم الأنساب ولا تتحكم التقاليد في الأحلام.

أسّسا بيتًا مليئًا بالبسمة والتفاهم، وزُيّنت جدرانه بصور أطفالهم الذين كبروا في جوّ من الحب والاحترام، بعيدًا عن القسوة والحرمان.

أطلقا على ابنتهما اسم ندى "أم محسن"، تخليدًا لذكرى الأم .وسمّوا ابنهما باسم

علي "أبي زهراء"، تكريمًا للأب الذي غادر الحياة.

لم يكونوا فقط عائلة، بل كانوا وطنًا صغيرًا يسكنه الحب، تنمو فيه الأحلام، وتُربّى فيه القلوب على الصدق والاحتواء.

وكان محسن لا ينسى كل صباح أن ينظر إلى زهراء ويهمس:

– "أنتِ اختصرتِ الحياة بكلمة: حبٌّ لا يخذل، ووفاء لا يموت."

وهي، كلما نظرت إليه، ابتسمت بصمت، فقد علّمها الحب أن لا حاجة للكلمات حين يكون القلب ممتلئًا بالسلام.

وهكذا...

نُسجت الخاتمة بخيط من أمل، وانتهت

الحكاية بنهاية تُشبه الأحلام.

نهاية سعيدة، كما تستحق الأرواح التي قاومت لتعيش وتحب من جديد.

ليس كل من أحبّ ظفر، ولا كل من انتظر نال، لكنّ الحياة تمضي، تختبرنا، تؤذينا، ثم تعطينا ما لم نتوقعه حين نكفّ عن الركض وراء المستحيل. كانت ترف ذكرى، وجعًا جميلاً لم ينتهِ باللقاء، بل

ختمته الكرامة. وكانت زهراء حكاية لم تُكتب على عجل، بل صاغتها الأيام حرفًا حرفًا، حتى أصبحت روايةً يستحقها قلب تعب وانتظر.

في النهاية، لم ينتصر الأجمل، ولا الأغنى، بل انتصر الأصدق، من بقي حين رحل الجميع، من أحب بصمت، ومن بكى وابتسم في الوقت ذاته، من خسر كثيرًا ثم قرر أن لا يخسر نفسه. هكذا مضى

محسن وزهراء، لا كزوجين وحسب، بل كشريكين في رحلة اسمها "الحياة"، تعلّما معًا كيف يُولد الحب من رماد الخيبة، وكيف تكون السعادة قرارًا لا صدفة.

إلى كل من ظن أن الحب لا يأتي مرتين...

أحيانًا، الحب لا يأتي في المرة الأولى، بل في الصبر الذي بعدها.

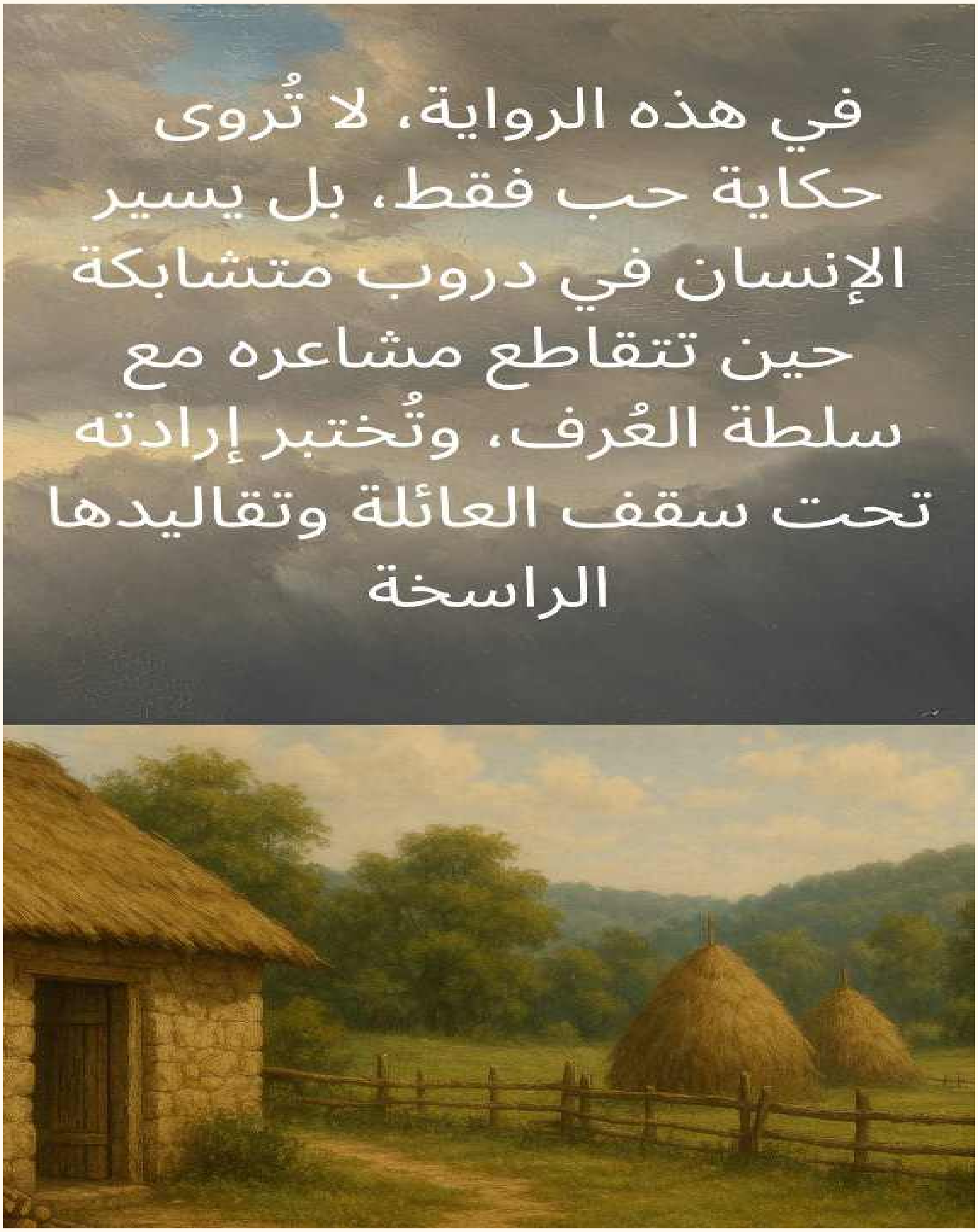
في هذه الرواية، لا تُروى
حكاية حب فقط، بل يسير
الإنسان في دروب متشابكة
حين تتقاطع مشاعره مع
سلطة العُرف، وتُختبر إرادته
تحت سقف العائلة وتقاليدها
الراسخة